

الحجارات التي غزا بها الأجانب ريف مصر ، كانت مملوكة لليونانيين الذين برعوا في هذه المهنة ، بحيث أصبح يطلق على كل أجنبي في الريف إسم « خريستو » .. ومع هذا فقد كانت دمياط هي المدينة الوحيدة من مدن مصر التي آثرت أن تكون مستقلة ، معتمدة على جهد أهلها في إقامة الصناعات وإدارة أعمالها ، وزراعة الأراضي المحيطة بها ، وتسيير السفن الشراعية بينها وبين بلاد الشام . ولم تكن تفكر أبداً في اللجوء إلى طرد الأجانب الوافدين عليها بهدف الإستغلال ، فإن هذا الإجراء يتنافى وما طبعوا عليه من السماح والخلق الطيب .

ولكن « الدمايطة » كانوا يرحبون بهم ويقيمون علاقات صداقة معهم ، دون التعامل معهم في أى نوع من أنواع النشاط التجارى مع أى منهم ، فلا يبيع ولا شراء ، ولا تبادل لأى منفعة تجارية ، ولهذا فلم يكن أمام الأجنبي إلا أن يحمل عصاه ويرحل . وخطوة خطوة ... عرف الأجنبي أن لا مقام له في دمياط ، فظلت مدينة نظيفة خالية من أى أجنبي باقية لأهلها فقط .. أو بمعنى أوضح كانت « ذات استقلال كامل داخل دولة محتملة إحتلالا كاملا .. » لقد كانت دمياط سباقة إلى الإلتزام الوطنى ومقدمة على مصر كلها في صياغة سبل المقاومة السلبية ، وإذا دعا الداعى كانت في مقدمة من خاض ميادين المقاومة الإيجابية .

ولهذا لم يكن غريبا أن تكون دمياط سباقة لغيرها من المدن المصرية الكبرى التي عاشت ثورة ١٩١٩ فعلاً لا قولاً .. وقدمت الضحايا ، وصدت قوات الإحتلال التي سارعت من القاهرة لتطفىء النار التي اشتعلت في المدينة مع إنطلاق شرارة هذه الثورة الكبرى .. كان أهلها قد إنتقلوا من الدفاع المحدود في مجتمعهم الصغير إلى الدفاع عن مجتمعهم الكبير مصر .

ولقد شهد الأولد الثلاثة هذه المراحل جميعا ، وعاشوا الفترات الرائعة من كفاح دمياط وجهاد أهلها ، وانطلاقهم وقت السلم والهدوء إلى تثبيت أركان صناعاتهم الممتازة .

وإلى جانب ذلك فقد كان شعب دمياط صاحب نكته لاذعة ، وصاحب ذوق رفيع في الفن الغنائى ، وكان كبار المطربين وعلى رأسهم عبد الحى حلمى ويوسف المنيلاوى وعبد الحامولى يعيشون فترة قلق إذا ما دعوا إلى إحياء بعض الحفلات العامة أو الخاصة في دمياط ، لأنهم يعرفون صعوبة مواجهة شعب المدينة وأنه ليس سهلاً إرضاءه ، وأنه ما لم يقدم كل منهم أحسن مالمديه فقد لا ينجو من نكتة أو استهزاء ، كذلك كان المطرب الكبير يسعد إذا حكم عليه شعب دمياط بأن يظل ساهراً حتى مطلع الفجر فذلك معناه إنه منح شهادة الإمتياز .

ولم يكن الأمر مقصوراً على الغناء وحده بل إن الذوق امتد إلى كل الفنون ، وكان كبار الفنانين وعلى رأسهم يوسف وهبى يحرص كل الحرص على أن تكون مسرحياته مما ترضى أذواق أهل دمياط ، لأنه يظنك يكتسب شهادة ممثلة في إرضاء شعب المدينة .